

الصنائع والفنون عند ابن خلدون

توفيق الشريف.

اعتبر ابن خلدون في ذات الحين المؤرخ الإسلامي الأكثر شهرة والأقل معرفة لدى الباحثين في عديد المجالات إذ بقي منحصرًا داخل مجال التاريخ والسياسة.

فهو مفكر تناوله الجميع من منظور المقاربات الفلسفية والسوسيولوجية دون أن نعثر له حضورًا في الدراسات وفي المصنفات الجمالية الغربية منها والعربية بإستثناء بعض الإشارات و الإحالات عند مؤرخي الفن الإسلامي أمثال جورج مارسي أو اولاق براقار⁽¹⁾ والحال أن نصوص ابن خلدون وخاصة الجزء الخامس من المقدمة تتضمن تنظيرًا يكاد يمسح معظم الفنون و أهم المفاهيم والمقولات المعهودة في تناولها منها ما يمس بالبراديقم القديم والوسيط لفلسفة الفن⁽²⁾ ومنها بالخصوص ما يعتمد في البراديقم الحديث وله إستتبعات في الخطاب الجمالي المعاصر.

لكن قبل الوقوف عند هذه المفاهيم الأساسية للبحث عما أتى به صاحبها بالمقارنة مع سابقه القدامى والوسيطيين يمكن القول بادئ ذي بدء ان ابن خلدون بقي مشدودا الى المقولات والبنى المفهومية الواردة في الحضارات الهلنستية والفارسية والعربية الوسيطة كأأن يعتمد المنظور الاغريقي في وصفه للدولة وبالتالي للمدينة بالكائن العضويحيث «يشير ابن خلدون الى الدولة كما يقول جيمس ديكي، مؤرخ المدينة الاندلسية، فيصفها بالكيان العضوي وهي صفة يونانية الاصل وإن هي تنطبق على احسن وجه على المدينة الاسلامية فالجامع يشكل القلب من المدينة فهو مركزها الحيوي الذي يصدر عنه الغذاء الروحي الذي يبعث الطاقة في كيان المدينة بأسره»⁽³⁾.

وفي المقدمة تحاليل ضافية حول الأجناس الأدبية والإبداع الشعري فضلا عن ورود مقتطفات هامة من الشعر الشعبي للبدو ولسكان المدن في المشرق والمغرب العربي. ولئن لم يقدم ابن خلدون كما يقول عبد السلام الشاذلي نظرية عامة في الثقافة وانما اكتفى بإصدار ملاحظات حول العلاقة الموجودة بين مدى تطور المجتمع والعلوم والفنون لان نظرية المعرفة مدينة لديه للتراث الإغريقي-العربي

نلمس فعلا فكرا مجددا فيما يتعلق باللغة والأدب حيث «يمكن تبرز طرافة ما أتى به للنظرية الشعرية وبالخصوص من خلال تحاليله لمفهوم الذوق الذي يقيم وفقه درجة المهارة اللسانية والشعبية ومفهوم الأسلوب (modèle) او الرسم الذهني (schéma mental) الذي يدفع الكاتب لاشعوريا إلى استلهاهم معرفته الحميمية بالادب شعرا ونثرا ولإعتماده في إنتاجه الخاص حسب عبارة جمال الدين بن الشيخ⁽⁴⁾.

أتى الحديث عما نسميه اليوم الفنون ضمن الفصلين الخامس والسادس من المقدمة الصنائع والعلوم من فلاحه وبناء وخياطة ونجارة وحياسة وتوليد وكتابة وغناء وطب إلى غير ذلك لان عدد ها لا حد له حيث يجمع ابن خلدون عن قصد بين البعض منها مثلا بين الغناء والطب أو بين الفلاحة والبناء في باب يمكن اعتباره في الاقتصاد السياسي إذ يتناول الصناعة في سياق تناول قيمة الأعمال وعلاقتها بالكسب بمعنى بالنظر الى الصنائع في علاقتها بالعمل الانساني وقيامها على الحاجة والنفع⁽⁵⁾ فهي بمثابة السلعة.

وقد تضمن هذا الجزء على تعريف الصنائع بتقسيمها وتصنيفها ثم بتحليل لعدد منها من مختلف الجوانب وفق تصور شامل للفنون بالاعتماد على جملة من المفاهيم الاساسية المعهودة في الخطاب الجمالي .

والملاحظ بادئ ذي بدء ورود لبس اصطلاحي في استخدام لفظ الصناعة يسحب على العلوم والصنائع والفنون لكن يمكن رفع هذا اللبس عند التأمل فيما يحرص ابن خلدون على بيانه اثناء تحليل الواقع المعبر عنه فمفهوم الصناعة يقصد منه خاصة الملكة القائمة على القدرة والمهارة والحدق في عديد المهن والحرف وفي عديد الاختصاصات وربما يذكرنا ذلك بمعاني الصناعة عند اخوان الصفاء «الرسائل» او الماوردي «في ادب الدنيا والدين» او الجاحظ في «البيان» او في «الحيوان»⁽⁶⁾ في ترادف لفظ الصناعة بالمهن والحرف وخاصة عند تناول منزلة الصانع العملية والاخلاقية في المجتمع.

يبدا الكاتب بملاحظة اولى في «ان الصنائع تحتاج الى نظر وعلم» بمعنى تعتمد على التجربة والمعرفة في ذات الحين و«في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران» ثم ياتي بتعريف «الصناعة» بما هي «ملكة في امر عملي ونظري» ومن هذا التعريف يتجلى التوجه التجريبي اذ يضيف «الامر العملي جسماني محسوس والاحوال المحسوسة نقلها بالمباشرة اوعب والملكة صفة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد اخرى».

ثم يورد ابن خلدون تصنيفا للصنائع يقيمه على الحاجة⁽⁷⁾ والفائدة باختلاف الاغراض والدواعي تترابط فيه الصنائع بصفة تفاضلية بقوله «امهات الصنائع» «ما هو ضروري في العمران او ما هو شريف بالموضع» وفق اعتبارات انتربولوجية تاريخية تذكر على مستوى الافراد والاجيال والامصار فالصنائع البسيطة تتعلق بالضروريات تكون متقدمة في التعليم والصنائع المركبة تتعلق بالكماليات «يتدرج فيها الفكر اذ لا بد لها من ازمان واجيال» و«بتزايد الحضارة تتزايد الصنائع وتكتمل».

ويدقق ابن خلدون هذا التقسيم فيضعه في تقسيم ثاني لما يبين بان الصنائع قسمان منها ما يتعلق « بامر المعاش ضروريا كان او غير ضروري» مثل الحياكة والجزارة والنجارة والحدادة وامثالها ومنها ما يتعلق بامر الافكار كالعلوم والصنائع والسياسة» في العلوم والصنائع يضع «الوراقة بما هي معانة الكتب بالاستنساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وامثال ذلك وفي السياسة يذكر الجندية.

ويحمله النظر في التصنيف الى الربط الجدلي بين مقدار التمدن وجودة الصنائع تتولد الصنائع عن الترف وخروج العمران عن الحد يفضي الى خروج الصناعات ايضا عن الحد لذلك يذكر الدباغ والصفار والصائغ والحمامي والطباخ والشمع والهراش ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول الى تعليم الطيور العجم والحرر الانسية وصنائع اخرى مثل تنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب واقامة اللواتم في الاعراس.

ولذلك يمكن القول بان ابن خلدون يعتمد مفاهيم تتعلق بالتجربة الجمالية انتاجا وتلقيا⁽⁸⁾ اي بعملية الانتاج كالاستجادة والاتقان والاحكام والحدق وبعملية التلقي في معنى الادراك والذوق واللذة في المرئي والمسموع والملموس في ان الفطرة هي التي توحى للانسان بالجميل والحسن وفي ان ذلك لا يحصل الا بعد الحصول على الملكة التي تفتقر الى التعليم.

ويدرك ابن خلدون هكذا معنى الجمال والحسن وهي مفاهيم جمالية اولية يؤسس عليها اعلام الدراسات الجمالية نظريات في الفن وان بقي الجمال عند ابن خلدون منخرطا في بعض المعاني القديمة والوسيلة كالتناسب والملاءمة والتجانس في المقادير والاحكام لما يقول «اما المرئيات والمسموعات فالملائم متناسبا في اشكالها وكيفيتها فهو انسب عند النفس واشد ملاءمة لها. فاذا كان المرئي متناسبا في اشكاله وتخاطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه

مادته الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان ذلك حينئذ مناسباً للنفس المدركة فتلتذ بأدراك ملائمتها «ومنها اتحاد المحبوبين العشاق عند التعبير عن امتزاج ارواحهم بروح الحبيب والاتحاد الكون وهذا ما يذكرنا بالتوجه الافلاطوني في معنى الجمال والعشق او استخدام لمعاني ارسطية كتواتر ثنائي المادة والصورة او اخراج الصور من القوة الى الفعل في اكثر من نص .

وعليه يعالج ابن خلدون الصنائع من مختلف جوانبها معالجة تكاد تكون ضافية نرصد اهم عناصرها:

- وصف التقنيات والاساليب والحيل المعتمدة وتحسنها الهائل في مختلف المجالات وتأثير ذلك على الادراك والذوق والاحساس : انواع البناءات مثلاً (الاعمدة المقرنصات الابراج المنارات) او الوصف الدقيق لعمل البناء او عمل النجار او صناعة الغناء في تلحين الاشعار وتقطيع الاصوات وفي الاداء الى ما في غير ذلك كحركات القوالب في صناعة التوليد او انواع الخط وابوابه واطواره التاريخية عند بيان العلاقة الوطنية بين تطور الصناعة وحجم الدولة (البغدادية والكوفية والانديسية والمشرقية والمغربية)⁽⁹⁾

- اعتماد عديد الملاحظات تشير الى الارث الهليني العائد الى البيزنطيين والارث الساساني عند بيان العناصر التزييقية المستعارة من عادات البلدان والمطوعة لحاجات المجتمعات كيف نقلت بعضها الى بلاد المغرب وكيف لا تزال مؤثرة في انماط الصناعة والابداع عامة.

- ذكر المواد المعتمدة التي نجدها في صلب الصناعة لتحديد عملية الإبداع والإختراع إذ هي قادرة على إثراء عالم السلع والاستعمال المتأخم لها كالعاج والخزف والطين و الكلس والرخام والخشب إلى غير ذلك من المواد في عمل الصانع عند تشكيلها داخل صور انيقة.

- وصف الأدوات أو الآلات كالوصف الدقيق للآلات الموسيقية لتركيب الأصوات وتأليف النغم عند التلحين وأداء الشعر.

وفي كامل هذه المعالجة نلاحظ وقوف ابن خلدون عند بيان وحدة الفنون والصنائع عند العرب واعتبار ان قدرتها الابداعية ليست حاملة فحسب لطابع مميز للتعبير الجمالي أي وفق مبادئ تكوينية وقواعد جمالية مخصوصة قد تكون قائمة مثلاً

على استخدام المفردة او التناظر او التجانس في تركيب الوحدات المستقلة والمترابطة في ذات الحين في الفنون المختلفة وانما تنم ايضا على استجابة لمتطلبات النمو والتطور التي عرفه تمدن المجتمعات في قيامها وانتشارها في المشرق و المغرب.

وبهذه الملاحظات يجوز البحث في ثراء الجزء الخامس من المقدمة وابعاد تحاليله التي تعتبر اليوم مؤسسة لمقاربات جديدة للسلوك الابداعي دون اختزاله في الفنون الجميلة المعهودة⁽¹⁰⁾. فمقاربة ابن خلدون وان اتت في العصر الوسيط لم تقع فيتيولوجيا عملية الخلق الانساني في توجهها اليوناني او المسيحي كما ذهب اليه جل الفلاسفة في العصور القديمة والوسيطه وانما يمكن وضعها ضمن ميتافيزقا الابداع او الخلق اللإنساني بالمعنى الحديث أي ان الابداع ذو طبيعة عينية وتاريخية كما تاكد ذلك من بعده كثيرا منذ هيجل لما تحولت الجماليات الى مبحث في تاريخ الفن .

ملاحظات

- (1) جورج مارسى L'art musulman, P.U.F, Paris
- (2) البراديقم القديم والوسيط في مقارنة مارك شرينقام يفيد النظريات الجمالية عند افلاطون وأرسطو الى القرن السابع عشر حيث تركز البحث في فلسفة الفن حول الجمال في حين اصبح البحث في القرن الثامن عشر في الحكم الجمالي مع كانط.
- (3) من اهم المقولات الوسيطة في فلسفة الفن: الاتساق والانسجام والقيس.
- (4) انظر ابن الشيخ في كتابه:
- Poétique arabe Editions Anthropos, Gallimard, collection Tel.
1989
- (5) لم يقع الفصل بين الجميل والنافع الا بداية من القرن الثامن عشر مع اندثار الحضارة الحرفية وظهور الحضارة الصناعية وبخاصة عند كانط في كتاب نقد ملكة الحكم حيث يشدد على لافعية حكم الذوق.
- (6) الجاحظ، البيان والتبيين، دار الفكر للجميع، بيروت، 1968.
- الجاحظ، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1945.
- (7) الحاجة من المعايير الاساسية في معالجة انتشار الفنون ونموها وكان ابن خلدون قد ادرك ان البحث عن مختلف لكفايات الجمالية كما يقول اتيان سوريو التي سعت اليها البشرية في مختلف العصور هو قوام الدراسة في تاريخ الفنون.
- (8) الانتاج والتلقي من مقومات البع في الدراسات الجمالية.
- (9) لقد كان ابو حيا التوحيدي من اول من تحدث عن جمالية الخط العربي في لرسائل.
- (10) لم يقع التمييز بين الفنون الجميلة وغيرها من الفنون الا بداية من عصر النهضة.